مَسارِب

عن أشياء خرجت مع اليأس..

أحمد النوبي

مَسارِب

أحمد النوبي

نصوص

2025

كُتبت هذه النصوص بين عامي 2019 - 2021

إهداء

إلى معجزة الأدب العربي الأستاذ/ مصطفى صادق الرافعي

ـ رحمه الله ـ أهدي هذا الكتاب.

مَساربي |

حيرة

في أحد الأيام، بل في زاوية منه، وقف وتنهد..
يتدفق الدمع الساخن من مُقلتيه، يرسم خطًا أو طريقًا على خديهِ.
ذلك الخط لم يكتب به من قبل، لم يتحرك إلا على سطح بشرته القاحلة،
اللهم إلا بضع كلمات بائسة، في رواية لم تنشر إلا في رأسهِ، حيث
الأوهام، والتخيلات، والمتلازمات النفسية والروحية.
أما عن الطُرق، فهي وَعرة، جبلية، صلدة، لا تصلح إلا للبؤساء
والمهمشين، وهم كُثر، تعلوهم الحيرة، كحيرة قلمي الزابل.
ولكن.. فيما كل هذا السرد؟! صدقني لا أعلم.

مع نفسي

فقدت الكثير جملةً وأبدو سعيدًا..

الخلوة الشعورية تسري في دمائي ببطء، أرى أنها تُداعبني أثناء سيرها الخفيف بين الأوردة والشرايين.

تعلم.. أنا كثير الثرثرة عن الفن، وصدقني.. الخلوة خير الفنون، وأنفعها، بل وأصدقها.

"الخلوة والتخلي"

يتشابهان في النغمة، والمعنى.

ولكن، ألا ترى شيئًا بينهما، هل يأتي التخلي قبل الخلوة، أم أن أنه خرج من رحم الخلوة؟! أنا بين الأمرين حائر ومستمتع.

لم أجلس مع أحدهم منذ زمن، حتى مع نفسي، صرت أقابلها مصادفةً في صالة بيتي، أو أثناء تمارين الجري التي أقوم بها بمحاذاة شاطئ البحر كل صباح.

رأيتها في يوم تركب سفينة وتلوح لي بيدها، وبعد فترة، وجدتها في أحد المكتبات العامة، حيث يُقام لها حفل توقيع لأحد كُتبها الجديدة، فاشتريت الكتاب، ولم أحصل على توقيعها.

أحيانا أشعر أنها تلاحقني، وأحيانا تنفر مني، وتَنزع أجزاء مني، فتأخذها برحيلها المتكرر، مع أنها تخبرني بأنها تعود إلى جسدي بالليل، عند النوم، ولكنها عودة روتينية، ليس لها داعي.

بالأمس جلسنا للمرة الأولى على طاولة الطعام، كانت تأكل بشراهة، وتبتسم، فطلبت منها بيأس أن تعود إلى جسدي، أو تتركني بلا رجعة، فأشارت إليَّ، فقمت وراءها نحو الشرفة، فإذا بها تصعد فوق السور، وتقفز في الهواء وتطير، ثم قالت:

إذا دخلت في جسدك، فلن تشعر بلذة الطيران تلك التي تشعر بها الآن وأنت لا تطير، وإذا ذهبت بلا رجعة، فلن تشعر بشيء بعدها.

وقفت كفريسة تحاول أن تحسب احتمالات النجاة، ولكن الحائط في ظهرها، وأمامها أنياب قادرة على الفتك بها، فقلت لها: بل أشعر باللذة.

***

امرؤ القيس في بيتي

منذ فترة وأنا اقرأ الكثير من القصائد، أشعر بالقوافي وهي تستكين في فؤادي، كذا الأوزان والموسيقى الداخلية للنص، كأنها تتدلى لي، فأقطف منها بشوق لا ينتهي.

قال لي امرؤ القيس:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ

فلم أكمل الشطر الثاني، حيث انفجر شلال البكاء من عيني، كنت أبكي داخليا، كأني ولدت على الطلل، هناك في صحراء العرب.

يبدو أن الحزن وكل ما يرادفه محبب للإنسان، يجد سلوته فيه، فينغمس بلا حَيطة أو ارشاد، وهذا يفسر محبتي للنصوص الحزينة، سواء كانت شعراً أو نثرًا.

لنعد إلى الملك الضليل امرؤ القيس، حيث قال:

تَرَى بَعَرَ الأَرْآمِ فِي عَرَصَاتِهَا
وَقِيْعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

وصفهُ للمكان عجيب، وتلك هي عيون المحبين، يرون السلبي والمهمش بعين الخيال، التي مُزجت بأشواقهم، فها هو يصف البعر، وهي فضلات الحيوانات المتناثرة على الأرض، بأنها كحب الفلفل الأسود في شكلها، وكل هذا وهو واقف على أطلال الحبيبة التي فارقت ديارها وفارقت فؤاده.

فهل مشهد مثل هذا قد يتكرر في زماننا، أم أن الإنسان الرقمي قد فقد شغفه من كل وجه.

أظن أنني قد اخترت طريقي منذ فترة، فإنني أريد أن أكون إنسانًا عاديًا، لا رقمي، يُوزَن بالأرقام، سواء كانت مالية أو جَمالية، أو حتى أرقام في لعبة ما على الهاتف، كل هذا السَخف لا يعنيني بشيء، لذلك كان الشعر والنثر بأنواعه هو سبيلي.

لنعد إلى امرؤ القيس، حيث ختم حديثه معي وقال:

أغَرَّكِ مِنّي أنَّ حُبَّكِ قَاتِلِي
وأنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِي القَلْبَ يَفْعَلِ

فقلت:

ألا يكفيك قتلا في فؤادي يا امرء القيس، كفانا إنشادًا للشعر، اترك فرسك هنا، وتعال لكي اسقيك فنجانا من القهوة في ستار باكس.

سرد ليس له معنى

أمطرت السماء بالأمس، أو قبل الأمس، لا يهم. الماء كفيل أن يُجرف هويته، لأنه ببساطة - وبلا كوميديا أو سخرية - يمتلك جسد هو عبارة عن خطوط رصاصية على سطح ورقة واهنة.
رأسه وقدمه ويداه - وبالأحرى قلبه - وكل شيء فيه هو خطوط شكَّلها قلم رصاص ردئ.
ستقول لي: إذًا هو رسمة شخص بالقلم الرصاص على ورقة؟
سأقول لك: إنه سردٌ بلا معنى، ليس لدي إجابة على سؤالك.

لنكمل..
بعد ذلك حدث شيئًا أراه غريبًا، ولكن القوانين لها رأي أقوى من رأيي، وأكررها، أقوى وليس أصوب. على كل، ولا أريدك أن ترى أن الأمر كوميديًا أو هزليًا، فإن القوانين أرسلت مع الأمطار مجموعة من المَمَاح

(جمع ممحاة) والممحاة هي الأداة التي تُزال بها الخطوط مع على سطح الأوراق، وكان في حيثيات الحكم، ولا تتعجب من كلمة حيثيات لأن الأمر صار إلى القضاء، أن الرجل قد اخترق بعض القوانين، أو التهمها.

ما أفهمه - إن كنت في نظرهم أمتلك آلة للتفكير - أن الأمطار ستكون كافية لإزالة ذلك الشخص من الوجود، لأن جسده المتشكل من خطوط رصاصية ليس لها معنى، لن يتحمل الأمطار، فلماذا نستخدم معه الممحاة - والتي جمعها (مَمَاح) تذكر - أهى آلة تعذيب من القرون الوسطى، أم أنه مَحو تاريخي؟!

أخبرني أحدهم بعد ذلك أنه علاج بالضد، لأن خطوط القلم الرصاص تهرب دائمًا من الممحاة، فهذا ينقش على ظهر الأوراق، وهي تمحي ما يخطه.

حينها فهمت.. فصرخت بصوتي وقولت: أوقفوا آلة التعذيب تلك، أوقفوها.

وها أنا ذا أهرب من ورقة إلى أخرى، أختبأ وراء الأقلام، وأهرب من المطر والممحاة، ومن كل قوانين الأرض.

***

طابور

على مَشانق الصباح
أتأمل دِرعي، أتقلدُ سَيفي
أضعُ يدي على جُرحي فيبرأ
أنظر في مرآة الغد الضائع، فتُحيط الهُموم برأسي.

أقف في طابور الأحلام بلا واسطة، أفتح حقيبة نفسي، أُخرج منها حُلمًا جديدًا، نَسجتُه من خيوط الشمس الصفراء، ولمَّا جاء اللَّيل، طلبت من

القمر أن يَمنحُني بعضًا من خُيوطهِ البيضاء، فرفض، وتَركني في حيرة نسيجية، لا حل لها.

الطابور لا يتحرك، كل الأشياء في الكون تَسير إلى الحركة، إلا هو، لعلَّ سبب توقفه يعود لكونه طابورًا للأحلام، وأنا أعلم أن غرضه نبيل، فالأحلام صارت مُستهلكة، فالكل يحلم.

ولكنني شاعرٌ، وقاص، أكتب كما يحلو لي، وأحلم بما أكتبهُ، أسير على الشوك المُدبب، فأكتب عنه قصيدة تجعله كالحرير، وتلفَحُني الأيام بقيظ المصائب، فأُجسد مُعاناتي في أقصوصة يقف أمامها الحزين، فيسعد، والحائر فيستبشر.

أحلامي شاعرية، سردية، حتى وإن كان الكون مُزريا، وطُرقهُ غير مُمهدة، فالأحلام - وإن كانت هزيلة - تَنبت في نفسي أشجار السعادة، وتستدعي شآبيب السماء، فينزل المطر، لتبقى حياة الأحلام حية.

مرَّ اليوم، وطابور الأحلام لم يتحرك -كعادته- عُدت للبيت، أُشبه (سيزيف)[1] صاحب الصخرة السرمدية، ولكنني في الغد لن أقف في طابور الأحلام، بالأحرى لن أحلم، ولن أنام يا سيزيف.

***

[1] أسطورة يونانية قديمة، عن رجل يرفع صخرة إلى أعلى الجبل، ثم تسقط مرة أخرى، فيقوم بإعادتها للأعلى، ثم تسقط، ويظل على هذا الحال.

عزيزي القارئ..

معذرة على المقاطعة.. فقد جاءتني سَبع رسائل من صديق مقرب، وأريد أن أشاركها معك.

لن أعرضها عليك دفعة واحدة، ولكنك ستراها بين نصوصي، وإذا سألتني عن دوافعي لعرض تلك الرسائل، سأجيبك: بلا أعلم.

***

الرسالة الأولى

في ظلمة النهار المزيف، وفي وسط حجرة مكتظة بكتب الأموات، وجدت ورقة صفراء تشبه خيوط الشمس التي لا لم أبصرها منذ أعوام.

بدأت في الكتابة التي لا أملك غيرها، اتعلم... إنني أفقد من نفسي أشياء، ولا أجد لها بديل، ما يُفقد لا يُعوض، كنتَ تقول لي هذا، أتذكر لقاؤنا الأخير؟ قلت لي أنك ستعود سريعًا، وأنك سترسل لي رسالة عند كل شروق للشمس، وأنك لن تتركني وحدي، وها أنا ذا وحدي.

أما أنا فلم أترك يوما من دون أن أكتب لك شيئًا، حتى وإن كام شيئًا داخليا، لا يكتب على أوراق، ولا يُخط بقلم، هى رسائل باطنية، ممذوجة بذكرياتنا.

أعلم أنك ستراسلني في يوما ما، إنني على يقين أنك على قيد الحياة، لو فاضت روحك لكنتُ علمت، ولا تخبرني بكيفية الأمر، إن أنفاس صدري متعلقة بك، والموت سيكتب على كلينا معا في نفس اللحظة الموعودة.

انتظر رسالتك..

***

[ليلة واحدة قادرة على صنع إنسان آخر لا يشبه الذي قبله]

الأمر يتعدى الليلة، قد تكون لحظة، أو طرفة عين، فالكلمة قد تُغير ميزان القلب، فلو كان راجحًا لجهة الود والمحبة والاشتياق، فإن الكلمة قادرة على تغييرِه إلي جهة النفور والهجر والبُغض.

لذلك فإن المرء الحصيف النابِه، يقف دائمًا عند طرف لسانهِ، ويجاهد أشد الجهاد أن تخرج منه - على الرغم منه - كلمة قد تُوغل في جرح إنسان، أو تطمس ضوءه، وتشتت شمل روحه.

***

قطار

يَجدُ لذتَهُ في العُزلة المُتحركة، حيثُ الخيال المَمذوج بالقِطار السريع، والنَافذة التي يُلقي منها حبل أفكارهُ وتخيلاتهُ.

ولكنهُ لا زال يَحلمُ بامتِلاك قطارًا خاصًا بهِ، أو أن يدفع ثمن المقاعد كلها ويَجلسُ فيه منفردًا، ثم يَستَكشفُ كلُ نافذةٍ على حِدى، وحينها لن يَجد ذلك البائع الذي يُزعجهُ بصوتهِ ولا تلك السيدة التي تسألهُ عن المحطة التي تُريدُها.

كان يأملُ دائمًا بقطار بلا محطات، وهذا حُلم قد لا يتَحقق، فإذا قابلتهُ في أحد القطارات ووجدته صامتًا - كعادتهُ - فلا تتحدث معهُ رجاءًا.

***

شعيرات دموية

فرشاة قديمة - كَقلبي - طرفُها يَحتوي على بعض الشعيرات القليلة التي لا يُمكن لأحد أن يَرسم بها، حتى وإن كانت محض لوحة بُكائية حزينة، لأن الفن عند هؤلاء له علاقة وطيدة بالمال، وفوق هذا فإن الفرشاة تالفة أيما تلف، ولا يَحسنُ أن نستخدمها، ولا أن نضعها مع باقي الفُرش الجديدة.

أخبرني أحَدهم أنه يَجدرُ بي أن أضعها في أحد المتاحف، وأن أدَّعي أنها منذ كذا وكذا من السنوات، وقد أجني حينها الكثير من التعاطف - لا المال - وأنه عليَّ أن لا أطمع في أكثر من ذلك، وهو أن تعود الفرشاة للرسم مرة أخرى مثلًا، لأن هذا مُحال.

لا أعلم ماذا عليَّ أن أفعل، ما أعلمه أن معنى الفرشاة هو الرسم، أما المتاحف فلا يسكن فيها إلا نِتاج الفرشاة من لوحات، لا الفرشاة نفسها.

الرسالة الثانية

لا أعلم هل وصلت لك رسالتي الماضية أم لا ؟
إنني أريد أن أبث ما في نفسي لأحدهم، وأنت لا يعادلك أحد، لأنك جزء مني.

لو كنت معي الآن لسألتني عن حالي، أنت دمث الخلق وكنت تهتم بي دومًا، ولكنني لست بخير أبدًا، قد أصبت بداءٍ غريب، وأنا لا أعلم هل هو داء أم دواء.

بدأت في اعتزال الناس، كل الناس، لم استثني أحدا، كلهم مسوخ تعيش لتقتل القلوب المكلومة فيخوض هذا فيها، وينهش ذاك من مادتها ، ثم يتركوها جيفة ليس فيها معنى الحياة.

الناس مرعبون، وأنت كنت غيرهم، كنت استند عليك ولا أخشاهم، أما الآن فإنني في وسط المعركة ولا أجيد حمل السلاح.

مدينة

هذه المدينة - وإن كان البحر يُجاورها - أصبحت كئيبة، وليس فيها مزية تُحمد عليها، أحس بوحشة تتملكني حتى وأنا أسير في شوارعها، ولما فكرت أن أُنادي عليها، علمت أنها لن تُجِيبُني، لأنها بكل بساطة مخطوفة من قِبَلِ مجموعة ما من المزيفين.

في حقيقة الأمر إن الذين يسكنون هذه المدينة ما هم إلا زيفٌ لا شك فيه، فلو بحثت عن معنى الإنسان بداخلهم فلن تجده، كما أنهم لم يكتفوا بهذا، بل قاموا بتزييف معنى المدينة في نفوسنا، حتى أصبحت تشبههم، كئيبة، كالطعام بلا ملح.

ومع هذا فإنني لا أتشبث بشيءٍ فيها إلا هذا البحر المُجاور لحجرتي، والمراكب التي تتخذ ستائر غرفتي أشرعة لها، كما أن سريري صار من أسطول سفن ذلك البحر، ولكنه أسطول لا يبحر إلا في الليل، حيث الأحلام.

أحس أن المدينة تريد أن تقول لبحرها، تعال وخذني بين أمواجك، حتى تزيل عني هذا الهمج الهامج، وتعيد لي هويتي التي زيفوها.

في نهاية اليوم، اجتمعت مع أشباهي في محبة مدينتنا، وعقدنا حِلفًا، وهو أن نعيد هذه المدينة إلى رشدها، ولم يكن في أيدينا إلا الكتابة.

***

صراعات شهرية

يبدو أن "أبريل" سخيفًا بدرجة ما، فقد حدثت فيه كل المتناقضات التي لا يتحملها عقل، لذلك فإنه من المتوقع أن يقوم صاحبنا بحساب الدقائق التي تقربه من ذلك الشهر السخيف ويحاول أن يتفاداه.

وتلك تعاسة لا أجد لها مثيل، كونه لا يستقيم له حال في بقية الشهور، فما هو إلا مترقبًا لما سيحدث في إبريل القادم، ولا يجد لذته إلا في الترقب، لأنه وبكل بساطة يخشى أن يأتي إبريل في صورة يوليو أو أغسطس، فما هو في نظره إلا بغيض، يترصد له، ليمكر به.

ومع كل هذا، فإنه لا زال يحلم بأن تكون السنة القادمة رحيمة، وأن ينقض مايو ويأتي بعد مارس، ولتنقص السنة شهراً فلن يحدث شيء لهذا النقص، وليذهب أبريل إلى الجحيم.

أحلام سبعينية

يُحكى أن رجلًا له حلم، مر على خداعه سبعون يومًا.
الأيام تتغير مساحتها وفق مذاج من يمتطيها، لذا فإن صاحبنا كابد من صخب الأيام الكثير، ولم يعي ماهية معاناته إلا بعد انقضاء تلك الحقبة السبعينية.

اليوم هو اليوم السبعون، وصاحبنا لا يزال تفكيره في اليوم الأول، لا يريد أن يُنتزع منه، قد تآلف معه، وتماهت أفكاره فيه.

سأنتظر لحين قدوم اليوم المئة على خداعه، لعله ينسلخ من يومه، أو لعلي أدلف إليه ونقيم حفلة للخداع.

***

قوقعة

الحياة مليئة بالصراخ والصخب. أنظر إليَّ، اتأرجح داخل قوقعتي الضيفة، فيتسرب إليَّ من صخب الحياة ما يكفي لقتل مائة نفس، ولكنني صامد كأي جبل مجبول على الرسوخ.

أشعر أنني مستنفذ، خاوٍ من مسمى الحياة، مثقوب الروح، مسروق الهوية.

فيا لنفسي، ويا لقوقعتي، ويا للصراخ والصخب.

***

هكذا مات

"لايحسن أن نقول أنه ميت!، نصفه قد يكون هكذا، والآخر يبدو هكذا أيضًا!

وبين هكذا الأولى - وهي حقيقية - وهكذا الثانية - التي يسبقها "يبدو" - بضع سنوات، قد تكون أشهر.. لا بل هي أيام، ولكن.. ما هو مسمى هذه الأيام التي تقع بين الـ (هكذا) الأولى والثانية؟!، وهل سلمنا (هكذا) بسهولة أنها أيام؟!

لا يهم.. تلك الأيام كانت بين موت وموت!، ما هذه الجملة؟!، بين موت وموت!، هذا هراء.. لن أُكمل معه الحديث، ولكنه لا زال يسأل بإلحاح، أظن أنه من اللياقة أن أجاوبه، ولكن لما السؤال إذا، بين الموت موت، وبين الموتان، موتٌ أيضًا، سينفجر عقلي.. ماذا يريد مني.. لماذا وضعني في

هذا الموضع وجعلني أفكر؟!، هل هو بشري مثلي، أشك في هذا، مُلامحة تقول أنه يحمل من صفات الـ(هكذا)!

أنا وأنا

ياأنا

نحن دائمًا معًا

نتشارك ونتشاجر

نتحابب ونتعاتب

نتقارب عند السقوط، ونتباعد عند الوقوع في آسر القيود.

نحلق في سماء الخيال مع أسراب التمني ونخلد إلى الأرض كما يخلد الميت إلى سرير قبره.

نقطف زهور الحب فنسْتقي من رحيقها ترياق أوجاعنا، ولا نعلم أن الترياق هو داؤنا.

نبكي لبكاء الأمطار في شتاء الأحزان، وإذا جاء صيف التمنيات نبكي أيضًا.

أظن أن قاموس لغتنا لا يحتوى على تضاد للفظ البكاء، كما أن لفظ الحزن قد غار منه ونفى عن نفسه صفة التضاد.. أرى أن البؤس يقف بعيدًا ويلوح لي بيده، وكما تعلمون أن الجِلسة تحتاج إليه، فلعله يوافينا وينشد لنا قليلًا من أنغام الأحزان التي تَطرب لها آذان البكاء وأهل الدموع.

نفترق؟!.. أرى أن هذا أحد الحلول، ولا أعلم ما الذي سيحدث بعد الافتراق، فلا تسألني عن شعوري حينها.

اتعلم يا أنا .. إنني أحيانًا لا أشعر بك ولا بي، فهل هذا الشعور مني أم منك،

أم أنه شعور من (أنا) آخر لم ينضم إلينا حتى الأن.

الرسالة الثالثة

أكتب إليك وقد تم عامي الثالث

لعلك تضحك الآن، ولكنك تعرف قصدي..

ثلاثة أعوام من العزلة، من الهروب ومن الشتات..

عمري لا يقاس إلا بها، كل ما كان قبلها هو إعداد لتلك السنوات، من تخبط، وانكفاء على الذات، وهراء لا حد له.

الهراء كان متغلغلا في كل شيء، الوضع كان مزريا، وذروته كانت في صديق ليس بصادق، أو بالأحرى كذوب مرتدي ثوب الصديق، وفي بشر لا يرونك إلا بعين الحاجة، فإذا كانت حاجتهم فيك، فتحوا لك الأبواب، وإلا فأنت مطرود بلا رجعة.

ولكن البشر لن يتغيروا، وهم على مستويات متباينة، الأمر كله كان يكمن في الصداقة.

الصداقة روح، والروح تألف الصدق، ولا يوضع على ميزانها الكذب والنفاق، وإن وضع وخادع الصادقين، فإن الميزان لا يُخدع ولو بعد حين.

أن تكون صديقًا لأحدهم فهذا يتطلب منك أن تصدقه في حبك، وودك، وإخلاصك، أن تكون صافيا له، ساميًا عن أخطاءه، ساترا لزلاته.

ولكنهم لم يكونوا على هذا الدرب، ظلوا ينهشون في نفسي، ويهتكون ستر روحي، وكنت غافلا عن أفعالهم... لم أكن أبله يا رفيقي، بل كنت إنسانًا.

ولكن هل الإنسان الذي بداخلي يتلاءم مع زماننا؟

أتذكر عندما قرأنا لكافكا أول مرة، نعم رواية المسخ، لازلت أشعر بتلك القشعريرة التي انتابتني، والخوف التي تسرب إلى جسدي، حتى أنني كنت

أراه في منامي، أعني بطل الرواية (غريغور سامسا) الرجل الذي قام من نومه فوجد جسده تحول إلى حشرة.

كنا نبحث عنه، كلما رأينا حشرة صغيرة أو كبيرة تذكرناه، حتى أنني كنت أضع بعض بقايا الطعام للحشرات في منزلنا، لشعوري بأن (غريغور سامسا) قد يكون في جسد أحد تلك الحشرات.

وفي أحد الأيام جئت إلىَّ وأخبرتني أنك رأيته تحت سريرك، فأسرعنا نحو بيتك، والتهمت أرجلنا درجات السلم الذي صار وكأن لا نهاية له، حتى وصلنا، ودخلنا حجرتك سريعا، فرفعت ملاءة السرير، وفجأة.. صوت أمي وهي ترفع الغطاء من على، فقد كان حلما مشتركاً لكلينا.

منذ حينها، وأنا اتحسس جسدي، وأنظر في المرآة، وأضع بقايا الطعام للحشرات.

صديقي، هل لا زلت تشاركني أحلامي؟

نفاق

في خضم عملية التنقيب عن المنافقين والمزيفين في حياتي، اتخذت أحدهم ليسير معي في دروب الحياة، فكان يساعدني وأساعده، وسبيلنا كان النجاة ولا شيء غيرها، ولكنني أكتشفت - بعد غفلة طال مكثها - أنه كان منافقًا في صورة صديق، ومزيفًا يرتدي لباس الحقيقة.

أن تكون منافقًا، تبطن السوء بداخلك فهذا ليس بالأمر الهين، هؤلاء القوم يتدربون ليل نهار على تقنيات هذا الفن الحقير، ويبذلون حبات دماءهم في تقمص أدوارهم التي أعدها شيطانهم الأكبر.

ما يزعجني أنني عندما ذهبت إلى مدرستهم لالتحق بها لم أُقبل، وكانت حيثيات رفضهم لي أنني لا أجيد أستخدام خاصية التلون، وأنني ضعيف في تحريك حواس جسدي - لساني وعيني وبل وحتى فؤادي - إلى ناحية كاذبة ليتوهم الذي أمامي أنني صادق.

كما أنني اخفقت في اجتياز اختبار قتل المشاعر بداخلي، واستبدالها بمشاعر الحقد والكراهية والبغض، لذلك فكان رسوبي شيء بدهي.

قابلت هناك ذلك الشخص الذي كان يسير معي في بداية أمره وأمري، وقد تغيرت حالته، فقد صار مدرسًا في الصف الأول لتدريس النفاق، وهو على قائمة الشرف، حيث حصل على جائزة أفضل مدرس (حقير) في هذا العام، وقد علمت أنه مترشح للجائزة الكبرى التي سيعلنوا عنها نهاية العام الجاري، وإنني لأرجو له أن يحصل على تلك الجائزة، التي يمنحوا فيها الفائز قلادة ذهبية منقوشٌ عليها بعض الكلمات الكاذبة، والقلادة ليست مبتغى المشاركين في تلك المسابقة، كل ما يتمنوه هو الحصول على اللقب الذي سيرافقهم على مدار الدهور، ألا وهو لقب (الحقير الأكبر).

***

ذكرى

في بداية أمري، كنت اتحاشا المكوث منفردًا، لأن أسراب الذكرى تطل عليَّ وتظلني بمجمع اجنحتها الكثيفة، ولا سيما في الليل.
الليل للنوم، للنسيان، لمحو ذكريات التألم والفقد، ولكونه محو مؤقت ينتهي باليقظة، فإنني كنت اسرد النوم، واهرب من معاني الليل.
وفي أحد الأيام، كتب على فؤادي الشقاء، اتت أسراب الذكرى مبكرًا على غير عادتها، فظللت أكابدها حتى ارخى الليل سدوله، وفسح المجال للذكرى في التحليق الحر في سماء عقلي.
لا مهرب الآن من الليل، قدت نواميسه بأن تُبقي على جفوني ساهرة، فلا أنيس أسلو به عن الذكرى، ولا جليس يذكر لي كنّه الليل والهروب من أسرابهُ.

***

يزعم أن كثرة التفاصيل - وهو بارع في صياغتها - ستجعله يسكن إلى روحه، ويجد مبتغاه. لكن كل هذا مجرد زعم، لأنه لم يزال على حاله، ينقصه شيء ما، والتفاصيل لن تغنيه عنه.

لا زلت أسمع أنين قلمه وهو يخطو على الأسطح، ولم أنسى تلك العبارة التي جعلتني أقرأ له كل نقوشه التي خطها على جداري، حيث كتب "إن الذي كُتب في الألواح العلوية لا علم لنا به، ولكن ما أعلمه أن بعض الكلمات التي قد يتمتم بها مسكين مثلي ستكون كافية إن كانت صادقة ومخلصة، لذلك فإن تمتمتي ستكون عندكِ يا رَوح، وإنني لأعلم تمام العلم أنني سأظفر بكِ، أو بشيء من نسيجك"

كانت هذه كلماته، فلو فسرها لي لكان هذا لطفٌ منه، غير أنني فقهتُها بعد ذلك، فلا تسألني عن تفسيرها!

***

أنْسى؟!

لا أريد أن أنسى.. أو لعلي لستُ قادر على النسيان.

أنا لا أعلم ماذا سيحدث لي بعد أن أنسى..

قد يسوء الوضع.. قد يفسد كل شئ، وحينها سأندم على نسياني.

أنني عالم بكل جراح الأمر وقد تعودت عليها، وقد أنسى هذا الشئ وأتذكر شئ أسوء منه.

لا لا.. أظنُ أن الذكرى سَتظلُ ما بَقِيت..

***

عقارب وذكريات

في زمنٍ ما رأيتهُ يَعبث بأحد العقارب - وكلمة "يعبث" ليست في محلها على الحقيقة، لأنَ فعلهُ كان أقرب للتَدمير والتحطيم - وكنا نسيرُ حينها معًا في موكب الساعات.

الوقت؟!.. لا أتذكر الوقت، ولكنني أتذكر كلماتهُ، قال لي أنهُ يريد من الوقت أن يتوقف قبل ما حدث منذ عام، وأنه لا سبيل لنسيان تلك الذكرى إلا في العبث بالوقت.

فأخبرتهُ أن ذلك العقرب الذي انتشلهُ من تلك الساعة ليس له ذنبٌ فيما حدث، وأنه ليس للساعة حياة بدون عقاربها، وناشدته أن يُعِيدهُ إلى وضعِه، ولكنهُ رفض وحطم العقرب والساعة.

ما يُأْلِمَني أن صاحِبنَا لم ينجو؛ لأن تحطِيمَهُ للساعة وعقَاربَها جعلهُ يَسقط في زمن تلكَ الزكريات، وهو سقوط ليس ثمة قيامٍ بعده، فهو قابع في أسفل هوة ذكرياتهُ المُزعجة. فيا ليتَهُ سَمِعَ نَصِيحَتي.

أجنحة

يقفُ على هامش الحياة، لا يقتربُ من خطوط التماس مع الآخرين، ولا يستَنفذُ نقطة عرق ليُفكر في الاقتراب من أحدهم.

ولكنه خرج في يومًا ما، فتح جناحيه وبدأ في التحليق، لم تكن له وجهة، كان يحلق للتحليق - لجنس التحليق - أو بالأحرى لجنس الحرية.

ولكن هل هذه حرية؟!، أم أنها مغامرة غير مفهومة؟!

أن تطير بلا هدف فإنك ستصير حينها هدفًا لسهام الآخرين، والآخرين هم الذين كنت في بدايات أمرك تهرب منهم وتنزوي[2] عن أماكنهم، ولكنك خرجت لهم بصدرك الواهن وأجنحتك التي أضعفتها العزلة، فلا تنتظر أن تكون عُقابًا يفتك بفريسته بلا هوادة.

***

[2] تنزوي: تختلي، تنعزل.

أحملُ في حُشاشة نفسي رسالة، تُطلُ برأسِها بالقرب من لساني في كلِ يوم، تُريد أن تَخرج من صدري وتذهب كأي رسالة طبيعية، ولكنني قمت بتقيدها بقيدٍ من نور.

لو خرجت لستراحت أنفاسي، ولكنها استراحة موهومة، وستظل عواقب خروج هذه الرسالة على جبين قلبي، عارًا وشنارًا!

لم استسيغ القيد أبدًا، ولكنني أعلم أن في قيد تلك الرسالة الحفاظ على أمل أراه سيتحقق..

لن أضع علامة تعجب، لأنني مُتحقق من هذا.

***

لا أعلم هل ما يمر بي هو محض غروب سيعقبه ظلمة، أم أنه وهم يريد أن يفسح المجال لشروق موهوم.

كل ما أخشاه هو أن يكون قارب نجاتي صورة وهمية لبعض الأخشاب المُتسمرة، وحينها سيكون الغرق ولا محال.

يبدو أن الطيران هو الحل، ولكن وأأسفا، فإن أجنحتي مُتكسرة.
- أنت لا تعي بما يَدور في عقلي، هذه الخيوط التي تتشكلُ فيما بينها وكأنها لوحة فنية ما هي إلا خيوط نُسجت من روحي، كل خيط منها يأخذ مني شيئًا ليعيش هو على سطح هذه اللوحة الملعونة.
أرى أن تنشغل بلوحتِكَ، ولا تتدخل في لوحات الآخرين.

***

أراك خاليًا يارفيق، لستَ كما عهدتُكَ، أخبرتُكَ من قبل أن تُغادر هذه المدينة، ولكنك لم تفعل، وها أنت ذا تُشبهها، فهي مُكتظة بالأشباح، وليس فيها ثَمة إنسان.. غادرها يا رفيق.

***

الرجل الوردي (1)

بدأ في طور الانفصال منذ فترة وجيزة، داهمته الأفكار، عصرته عصرًا، وأخذت في تشكيل عقله من جديد.
العزلة أحيانًا تصفي الذهن، ولكنها تحتاج لأفكار سليمة لتتم عملية التصفية، وهذا المسكين لا يمتلكها.
كان عليه أن يتخلص مما علَّق في نفسه أولًا، وهذا أمرٌ عسير، لأنه يُقعد في نفسه بعض التابوهات السخيفة، ولا يعلم أن الشر كل الشر فيها، لذلك فأردت أن أجاريه في الحديث لعلى أنقذه.

أخبرته أنه حتى يُرضي نفسه التي تريد أن تُرضي البشر، فإنه يُحتم عليه أن يتشابه مع "الرجل الوردي" في كل شيء، حيث التحطيم التام لجدار الروح، وبناء مكانه جدار للبشر، وتفكيك كل وصيلة بينه وبين مراد قلبه، ووضع مكانها عُقد مختومة، موسومٌ عليها مراد البشرية جمعاء.

جلسنا في حرم الصمت لدقائق، ينظر إليَّ ولا يتكلم، ولكنني أعي ما يرسله لي عبر بريد عينه.
أحدهم يطرق الباب، في البداية - ككل البشر - لم أعرف الطارق، ولكنني أحسست أنه هو، هو بعينهِ.

الرجل الوردي يطرق بابك الآن، ولكن هل سيدوم طرقه؟ لو دام طرقهُ فإنني سأشك في هويتهِ، لأنه يقف دائمًا عند كل مُراد غير مُراده، فلو كان مُراد الباب أن يقف حائلًا بينه وبين مُراده، فإنه سيخضع لمُراد ذلك الباب الغاشم.
فلتُكسر الأبواب ولتحرق التابوهات، ولا يتكدر صفوك وصفو هذا المسكين الوردي.

***

الرجل الوردي (٢)

- صنبور حقير تقطر منه بعض حبات الماء، وأحمق يجلس بجواره ليرشف منه رشفه كاذبة.

أخبرني بعضهم أن ذلك الصنبور مخيف بدرجة ما، لأنه يجعل من شرب منه - ولو حبة واحدة - يتفنن في الكذب بدرجة متناهية، يخداع ويختال بكذبه، وفي يده راية كتب عليها مسمى الحقيقة.

في يوم من الأيام - الكاذبة - مر الرجل الوردي بجانب الصنبور، فوجد الحمقى يجلسون بجانبه، والصنبور يقطر نقطة كل ساعة، والقوم يتقاتلون علي تلك النقاط المتتالية، وقد كان الرجل الوردي مندهشًا من نظامهم في بداية الأمر، غير أن كل هذا تغير بعد أن تأخرت النقطة التالية من السقوط، وقد كان أحدهم يقف وهو باسط فمه للصنبور، ويأمل أن تنزل القطرة

اللعينة، لأنه يخشى أن تتأخر فيقتله القوم الذين يقفون وراءه، فما هم إلا كَذبة، وأمر النظام ما هو إلا أحد الكذبات التي يخبئون وراءها حقيقتهم. وكما قلت، تأخرت النقطة، فإذا بهم يخرجون الرجل - المَهين - من الطابور، ويقف مكانه رجل آخر، هو أكذب منه.

كان من الغريب في نهاية هذا اليوم، أن نجد رجل من هؤلاء الكذابين يقف في وسط الشارع، وضوء الشمس ينعكس على رأسه فيجرح به عيون الناس، وإذا به ينصح ويتكلم في الفضيلة، كما أنه تكلم في بعض الأشياء السخيفة - لا أريد أن أتذكرها - التي لا يجدر أن تخرج من فم نتن كفمه.

"كان علىَّ أن أقصف ذاك الصنبور بالمنجانيق".. قالها الرجل الوردي لي بعدما طفح كيلهُ.

الرسالة الرابعة

أخبرتني من قبل أن لا أقرأ رواية "آلام فيرتر لجوته، ولكنني قرأتها.
الإنسان شغوف لما هو ممنوع ومحجب، يريد دائمًا أن يثبت أنه على صواب، وأنه لا يخشى شيء، وأنه يمتلك خيوط القضايا كلها، وما هو إلا أحمق جهول.

أذكر أنك حذرتني من ذلك الهوى الذي وقعت فيه وأخبرتني أنني لا أسير بطريقة صحيحة، وأذكر ردي عليك حينها ، قلت لك: لا تخف.

كان عليّ أن أخاف، وأن أحذر، ولكنني كابرت، وحسبت أن حبل قلبي بيدي، اتحكم فيه كيفما أريد، والحقيقة أن طرف الحبل لم يكن معي، بل كان معها، وكلاهما يشد الخناق، هذا يشد لكونه مشتاق لها، ولا يرى معنًا للحياة بدونها، وهي تشد الحبل إلى جهة الابتعاد والجهر، غير مبالية لما

يحدث لي من ألم. غريب هذا الأمر، تبتعد، ولكنها لا زالت جاذبة لحبال قلبي وقلبي يألف هذا العذاب.

هذه الرواية على ما فيها من آلام يا رفيق، إلا أن روايتي أشد ألما منها،

أرجو منك أن ترشدني إلى رواية أخرى لعلي أجد

فيها شيئًا مريعًا يجعلني أنسى ما حدث معي.. لا زلت انتظر رسالتك.

| مساربها

عند اللقاء.. قبل اللقاء.. بل حين اللقاء، سأصمت..

تتحاشى الكلمات، تهرب، تختلق أعذارًا واهية، فتركب جواد ظلمتها، وتتطاير، لا تخشى الموت في سبيل الهرب، تنطلق مسرعة لأقرب جبل، يحمل أعلى قمة. تتفكك الكلمات إلى حروف، تبتعد عن بعضها، يخشون من الالتصاق، يقفزون من على القمة، تذروهم الرياح يمنةً ويسرةً وهم سعداء، لأن مُهمتهم قد اكتملت، ولم يقعوا في شِراك البواح أما عيونك. لعلي مصاب بمتلازمة النظر.. النظر إليكِ.

***

رَوح

لا أعرف كيفية البدء الآن يا رَوح، يجدر بي أن أتحدث وأطلق لساني، ولكنه معقود.

يبدو أن المُلتقى قريب، وإن كان المُلتقى الأخر هو المحبب لي ولكِ، ولكننا كبشرين نريد أن يكون لنا لقاء هنا على هذه الأرض، وليس هذا إلا طمع في رحمة خالقنا، لأننا نعلم أنه لا سبيل إلى لقاءنا إلا بتقدير منه، وفقًا لناموس الحق[3]، والشِرعة القويمة.

لا تبكِ.. ليس هذا وقته، وإن كان البكاء يجعلكِ أجمل، لا تستغربي من هذا، فإنكِ تحملين في صدرك قلبًا زجاجيًا، يُرى ظاهرهُ من باطنهُ، فإذا بكيتِ صارت دموعك وكأنها حبات لؤلؤ ماسية، لذلك فإنني لما أخبرتك بأن الفن يُحاوطكِ من كل جهة لم أكن واهمًا.

[3] الناموس: القانون

قد تتغير بعض الأشياء ولا يكون اللقاء غدًا - بالتحديد - لذا فإننا كما نحن، نستكين ونتصبر بفن الروح والخيال حتى نلتقي.

***

أصبت بلعنة الفن، فإنني كثير الترديد لجملة الإيمان بالفن، فإنني أكتب للفن، وأقرأ للفن، أعمل لأكسب قوت يومي به، وأتودد إلى رفيق عزيز من أجله، وأعبس في وجه سخيف ثقيل الروح من أجل الفن أيضًا.

كنت أنا والفن دائمًا على وفاق، لم نتنازع بتاتًا، إلا فيكِ أنتِ يا رَوح، فإنكِ لما ذهبتِ على الرغم منكِ، ومني، أثقل الهم فؤادي، وصرت كما تعلمين، فحينها طلبتك من الفن، فقال لي: أما اكتفيت مما رأيته منها من فنٍ أراحك وغير مسار فؤادك؟! فأخبرته أن الذي رأيته منكِ كان يفوق صبري، وإنني ورب المحبين لا أطمع يا فن، ولست أهلًا لهذا، فأنت

تعرفني، وتعرف أنني مذ صاحبتك ما خالفت عهد صداقتنا، ولا ميثاق خُلَّتنا، ولا أخفيك سرًا، أنني لا أريد من هذا الكون إلا استقرار ميثاق الحق الإلهي في صدري، والسير به، ثم العيش به معها، حتى وإن كنا في كوكب آخر نعيش فيه بلا بشر.

فأخبرني الفن أن هذا محال، فعليك أن تتصبر، وترضى وتذعن، فإن هذا فنٌ آخر إذا سرت معه في دروب الحياة، قد تصل إلى رَوح، أو رَوحٌ منها.

***

في المساء جلست مع جزء من روحي نتحدث عنكِ، تكلمنا عن زوايا نفسك، وصفات فؤادك، وعن سمات روحك، وعبير ذاتك.

كنت مسهبًا في حديثي، وكذلك هو، ظللنا نتبارى فيما بيننا، وعقدنا مباراة، الفائز فيها هو الذي يملك معرفة عنك أكثر من الأخر.

تحدثنا في كل شيء نعرفه، لم نكذب ولم نختلق شيئًا، أنت أمامنا كالقمر، ولا سبيل للمرء أن يخطأ في رؤية الواضح المنير.

***

أنا لا أفهم كنّه الدقائق، ولا أعيرها انتباهًا. معنى الدقائق يتجلى عندي فيما ستقدمه لي، حتى وإن كان التجلي همًا وحزنًا، فالأمر يكمن في المعنى لا في التواجد المادي.

نظرت في لوحة أحدهم، فوجدت فنًا ومعنًا - ودقائق. اللوحة كان لها وقتًا مُحددًا، فقط خمس وأربعون دقيقة من التساؤلات، ومن الحيرة، والتشتت.

اعجبتني اللوحة، فُتنت بها، وكأنها قيدتني بمعناها بقيدٍ من نور، حتى أنني حسبت نفسي جزءً منها، أو على الأقل لون من ألوانها الزاهية الممتدة أمام عمري، وكأنها الحياة.

حينها، زمجرت روحي بالتأسف والندم، لأن تلك الدقائق الخمس وأربعون قد مضوا، ولكن أسفي كان على عدم وجودي في وقتها، لأتمكن من التصدي لها، وإيقافها، حتى وإن كانت في منظوري محض فن، وهذا لأن بعض الفن قد يفسد ولا يصلح.

فطلبت من أغسطس الماضي أن يقترب، وأن يقدم لي يومه الرابع، فقدمه لي، ولكنني عزفت عن الأمر، ورأيت أن لوحة فاتنة مثلها، تحمل فن لا يوازيه فن، لا يهمها أن تزيل تلك الدقائق، بل قد تكون الخمس وأربعون دقيقة وقود لها فيما هو قادم من مسارح الحياة ومعارض الفن.

وإنني أعلم تمام العلم أن المعرض القادم سيكون في فؤادي، ولن يطلع عليه غيري، كما أن الدقائق القادمة إذا جاءت، فإنها ستجدني بجانب اللوحة، ووقتها سيعلم القاصي والداني من أكون.

الرسالة الخامسة

وصلتني رسالتُك بالأمس، وقد رأيت في زوايا كلماتك بعضًا من ملامحك التي نسيت أجزاءً منها، الخطوط والكلمات تحمل صوت صاحبها، فكيف إذا كان شاعرًا؟!

في رسالتي الماضية، ذكَّرتُك بذلك الهوى الذي وقعت فيه، هل تذكر ماذا كنا نطلق عليه إذا تكلمنا فيما بيننا، حتى لا ينكشف أمري؟!

الضوء، كنا نسميه الضوء، كيف حال الضوء، هل مر الضوء من هنا، هل رأيت الضوء اليوم.

لا أريد أن أُبكيك يا رفيق، ولكنني أبكي الآن، وقد تعاهدنا أن نتشاطر الأحزان قبل الأفراح وذكرى الضوء لا تعادلها ذكرى حزينة.

سأقص الحكاية كما عشناها معًا، ولكنني أخشى أن نتذكر ونبكي حتى يفلق البكاء أكبادنا، ويعصر الدمع عيوننا، ولكن لعل قلبي الضعيف يتقوى بهذا، ويعلم أنه لا سبيل له إلا النسيان والهرب.

نعم هذا ما قالته لي عيونك عند آخر لقاء بيننا، قلت لي أنسى وأهرب، ولم تذكر لفظة الضوء حتى في جملتك، لأنك لا تريد أن تذكرني بها حتى ولو بالإشارة، ولكنني لم أنساها حتى في هروبي.

ولكن السؤال هنا هل هربتُ منها هروبا تامًا، أم أنني أكذب في هذا أيضًا؟!
أمسح عنك الدمع يا رفيق، فإن أمثالك من أصحاب القلوب الزجاجية لا يملك دمع عينيه، ودعني أداعبك وأذكرك بتلك الكذبة التي كانت في صورة مزحة، وكلانا كان يعلم أنها حقيقة قلبية، ولا دخل للكذب فيها.

كنتُ في نشوتي، أرى الحياة بشكل فريد، حياة لا تحمل هموما ولا أسقامًا، وقد أحس بهذا بعض المحيطين بي فسألني أحدهم وقال لي: ما الذي تغير في وجدانك يا هذا صرت كالطائر الذي كبر ريشه فجأةً، فإذا به ينظر إلى جانبيه فيجد جناحين قد قويت عظامهما، وشرأبت أطرافهما، فلا يقف بينه وبين التحليق في سماء نفسه شيء.

كنت ساكنًا، فإذا بك تتحرك في كل اتجاه يأتي منه السرور، وكأنك ورقة سابحة في رياح الخريف، تقترب من الرياح ولا تبالي بقوتها، والرياح تدفع نفسها تجاهها بلطف، فما الذي تغير فيك، أو بالأحرى ما الذي استوطن قلبك وغير قسمات روحك ؟!

احسست أن كلامه قد اخترق روحي ووصف كل عضو بداخلها بصورةٍ متناهية في الدقة، ولا اخفيك سرًا أنني قد تلذذت بكلماتهِ، ولكنني لا أُفشي سري إلا لمن كان له في جدار روحي لبِنة، وأنت صاحب اللبنة

الوحيدة يا رفيق، ففتشت في نفسي فلم أجد جوابًا مناسبًا، وخفت أن ينكشف أمري، فإذا بي أقول له في سكون تام: يبدو أنني قد تعرضت للضوء.

***

سجال

في أحد المرات - لم تكن مرة واحدة - جلست بين يدي أحداث الافتراق، أخذت قلمي وأوراقي، وبدأت النظر في كل تفصيلة، وفي كل كلمة وحرف كان سبباً فيما حدث. كانت نتائجي دائمًا تشير أنه لا سبيل للفرقة، بل إن الأمر كان في الضفة المقابلة لها.

التودد والتَفهم، كانا شعار النتائج، والوفاق والاتفاق كانا مؤشرات إيجابية ستحدث لا محال. ثم حدث العكس، فرقة هادئة، وطعنة في سويداء القلب لا ينفع الصراخ والتألم معها، وكأن خنجر الفراق أحب تربة فؤادي فإذا به يتغور فيها بشدة، غير عابئ بما ألحقه بها وبي.

***

في دخول ليلة ما ستأتي وحدها، سيتوقف الغروب قليلًا، ولن يذهب في خِضم الليل، وصدقوني لن يحدث شيئًا لو بقى بجانبي.

السماء كما هي، لونها ليس بالأزرق الكامل، بل هو أقرب للوردي، كذا السُحب القطنية الرشيقة التي تتشابه في الحال مع خافقي[4]، أما الشمس فإنها تقف صامدة في صفي، هذا اليوم لن يأتي مثله في العمر، والشمس تدرك هذا، فلا تستغرب من مكوثها معي.

كانت ليلة بدرية المعنى والحال، من غير اللائق أن نفعل هذا الأمر بالبدر، لذا فإنني لم استمع لنصيحتهم في خداع رفيقي السماوي، وقد أطلعته على خطتي، وقد استجاب لي في ود كعادته.

[4] الخافق: القلب.

كانت خطتي تنص على أن يترك البدر عرش الليل لليلة واحدة، تستحوذ هي عليها، فيبرز ضوؤها، ويمتد في أرجاء مدينتي الخيالية.
لم يتبقى إلا سطوعك، البدر فسح لكِ المجال، وكل الأجرام السماوية تقف مستعدة، المعاني، الفنون، الأماني الموهومة، والأشواق المكلومة تنتظرك، تمهلي كيفما شئتِ، ولن أحثك على التسرع، لأنكِ مأمورة مثلي ومثلهم. في كل مرة تنعتيني بالعجول، وأنا لست كذلك، كل ما في الأمر أنه يعتريني بعض الشوق يا رَوح.

***

تبدو مدينتنا تعيسة، كئيبة، ومفقودة.
قد تكون شابة - وهي هكذا دومًا في مُخيلتي - ولكن فيما يفيد الشباب، وكاهلها مُحملٌ عليه آمال وآلام ساكنيها من المعذبين والمقهورين.
المرء يعيش بمدينتهِ، ما يؤلُمها يؤلمه، وما يعذبها يعذبه، وما يفقد منها، يفقد منه حتى يعود إليها، وحينها يعود إليه.

وعلى الرغم من هذا، فإنها لا زالت تمتلك شيئًا خاصًا بها، وخصوصيته تلك لا يفهم كُنهها[5] إلا الخواص، وهؤلاء قلة في مدينتنا.

وها قد أتى الغروب، بعد أن أحرقت الشمس جباه المهمشين، وتفجر العرق وكأنه شلال حزن على أجسادهم، وحينما لفحتهم رياح الذكريات بما فات، إذا بها تضربهم بتذكر ما هو أت، وهم بين هذا وتلك في مِرية[6] من أمرهم.

حينها يقوم الغروب بما هو صحيح، وما هو منوطٌ به، فتتغير ألوان السماء، وتتنتشي وكأنها في يوم عرسها المنتظر، فالألوان التي تنبت فيها تزداد تشكلًا، حتى أنك لا تعلم ماهية كل لون منها، أما البحر فينتفض من سُباته[7]، وينسى لونه الأزرق الذي يصاحبه دومًا، ويغار من ألوان السماء

[5] الكنُه: هو جوهر الشيء.
[6] المرية: الشك والجدل.
[7] السبات: النوم.

الجديدة، فإذا به يأمر أمواجه أن تتعرض للسماء الجديدة بألوانها، فتتلألأ أمواجه وكأنها قد أخرجت كنوزها من أحشاء هذا اليم العذب في فنهِ لا في مادتهِ، وبين كل هذا الزخم، تأتي في ثوبها الذي يُخمرُ جسدها النوراني، وكأنه يسير هو فيها لا تسير هي بداخله، وهذا السير ما هو إلا عقدًا سماويًا كُتب عليها فتذوقته، وقَبلت أن تكون فتاة سماوية، ليس لها نصيب في الهراء الأرضي.

أما أنا.. فإنني أُراقب الغروب كل يوم، لعلى أسمو إليها في يومًا ما.

***

ترتدي زي الأزهار، ثم تخبرني بأنها لا تحتاج لضوئي!
سأقبل تدلُلَكِ ومُمانَعتُك، فإنني بهذا أُكابد الحياة، وأعود بنفسك إلى نفسي، ولا أنسى نفسي ولا نفسك عند الامتزاج، لأن لكلٍ منا هَويةً تَهوى الأُخرى، ولا يكتملان إلا ببعضهما.
سأظل أنا ضوؤك، بهويتي وضميري وجذوري، وستبقين أنتِ للهوية مكان، وللضمير معنى، وللجذور مخبأ اركنُ إليهِ.

***

راقبتُ مسار الحنِينُ بِداخلي، لا زال يَتنفسُ بالود القديم، بالكلمات التي تُشبه النغمات، بالأنفاس المتوشحة بروحك، وبفؤادك الذي ينبض بشوقك وشوقي.

الحنينُ إليك كالتنفس عندي، ليس لي يدٌ فيه، ومع علمي أن الخطوات التي تفصل بيننا تتباعد عند كل نفس نتنفسه، إلا أنني معكِ بالمعني وليس بالروح أو الجسد.

إنني أحن إليك لمعنى، وأشتاق لمعنى، أعذبُ نفسي بالتذكر لمعنى، وأتناسى لمعنى، كل هذه المعاني لن يفهمها أحدٌ غيرك، لأنك في الأصل معنًا، ولستِ مجرد هوىً زائف، أو طيش جارف.

إنني امرؤٌ يحملُ هوية، ولا أُخرج المعاني التي بداخلي إلا لمعنًا يُطابقها، ونسيج يُشبهها، وأنتِ في منظوري تطابقين وتشبهين كل جميل.

نص وفراق

يبدو أننا لن نلتقي قريبًا، لذلك فإنني حزين..
ولكنني لن استسلم، سأبحث في كل المكتبات عن كتاب يوافق عنوانه عنوان لقاءنا الذي حددناه منذ مدة، سأقرأ كل كتب هذه المكتبة حتى أرى ذلك النص الذي نكون فيه معًا، سأقلب تلك الصفحات واستنشق رائحتها القديمة، لعلَّ شيئًا منكِ قد لامسها فأتشبثُ بهِ.
حاولت وبحثت، ولا زلت أدور بين المكتبات، فلم أجدُ كتابًا يشفي ما بداخلي، حتى وجدته، كان عنوانه يحمل مُسمى الفراق، وصفحاته تنضح بالألم.
لم يكن هذا الكتاب مثل بقية الكتب التي أعرفها، ما علمته بعد ذلك أنه يُسمى بشيطان الكتب.

***

ومن أفَانين الجَمال، ونوامِيس الحُسن، تلّك اللّحظةُ التي تَتَدلى فيها الشَمسُ بأشعَتِها على وجهكَ المُشرق، ومع هذا فإنكِ مشرقة بذاتك، ولا تحتَاجين للشمس في هذا، بل إن الشمس لن يَكونُ لها معنًا عندي إلا بذلك التَجلي الذي سار عندما لامست أشعتها صفحة وجهك المُنير.

تلّك اللَّحظات ليس بمقدور الشَمس أن تَقومُ بها بمفردِها، فتقديمك ليدٍ العون لها، هو فنٌ آخر لم يَتكلم عنهُ أحدٌ في تاريخ الجَمال.

***

- أما بعدُ..

أرى أن لفظةُ (أما بعدُ) ليس لها مكان أمام عينيك، كما أنها لو تعرضت لشُعاع ابتسَامتك ما استطاعت أن تُجاري هذا النور المُريح، ولو أنصتت إلى نغمات صَوتُك وأرادت أن ترد النغمة بالنغمة ما وُفِقت لهذا.

أما بعد!.. وماذا بعد؟!

إنني لا أريد أن أتجاوز هذه المرحلة، حتى وإن قتل أحدهم لفظة (أما بعد) لأنني سأجدُ سكوني حينَها، ولن أخشى من غَيَاهِبها[8] المُخيفة.

أتعلمين.. إنه يَجدرُ بي أن أتجَشم[9] عندما أتحدثُ عنكِ، فما بالك وأنت تقفينَ أمامي وتُلقين بسِهَام عيناكِ الفاتنة نَحوي.. هذا والله لأمرٌ عسير.

[8] الغياهب: هي الظلمة، شديدة السواد.

[9] اتجشم: اتهيأ، اتحمل المصاعب.

بداخلي أجرام متبعثرة لا تجد في أفلاكها السبيل.

***

الفنُ والخيال لا يَنْفكان عن نَبض المُحب.

***

أسعى لأن يكون الرابط الذي بيننا "كتاب

***

ولقد وقعت أشعة الشمس عليكِ حينها، فجعلتِ لها فنًا وجمالًا.

***

إن الذي يَجمعُ بينَنا هو حبلُ الخيال الذي يربطُ المجرات المعنوية بقلبي، وليس لنا سبيل إلا التمسك به، وإنني مُتَشبثُ بهِ حتى اللقاء، ولكن تشبثِي به ليس له معنى إذا تركتيه يَنفلتُ من بين يديكِ، وفي تركك له موت لكل شيء، فلا المعنى يَعيش ولا المادة تتعايش.

فلا تتركيه..

***

"ومن بين الكواكب أحملُ قلبًا لا يُشبهَهُم"

***

"فلولا تركهم لنا ما كان لنا أن نكون رفقاء للأزهار"

***

الزهور بفعلها وليس بحسنها

***

رأيتها في بستان خيالي ناظرة، فأحببتها كزهرة

***

قد أُرسل لكَ جوابًا فارغًا.. وهذا يَرمُز إلى سكوتي.

***

وإنكِ كالسماء التي تَحملُ قلُوبًا بعدد النُجوم

***

"كانَ كلّما نَظر إليها وجد في نَفْسهِ تَسابيح للرحمن الذي فَطرها"

***

في تاريخ الجمال لم تظفر العيون بمثل مشاهدتك، ولو سرت إلى أقاصي المدن وأعالي الجبال لأبحث عن شيء يشبهك ما وفقت لهذا.
لم أحظى بمثلك، ولم تحظين بلسان يرسم ما بداخلك بكلمات مسموعة كمثل لساني.
كلانا يعمل على شاكلته، أنتِ خلقتِ في زينة وفن، وأنا كما تعلمين، اتأمل الزينة وأكتب عن الفن.

***

كنا مختلفين.. اختلاف ليس فيه خلاف.
كنت أحب الهدوء الذي يوحي بأن الحياة قد انتهت، أما هي فكانت صاخبة، تنير الليل بضوئها، وتعبث بأشعة شمسها، فلا يستقيم لها شعاع.

كنت منعزلًا_كعادتي_ لا أخالط نفسًا، ولا أشارك روحًا، ولا أُجالس إلا نفسي، وهي كانت كماء السيل، لا تترك أرضًا ولا سماءً إلا وقد استوعبتها.

كطائرين كنا، هي تطير في أسراب عشيرتها، فتتقيد بقوانين السرب، وأنا كما تعلم، أطير وحدي، ولا أفهم معنى أن أكون مقيدًا لأحدهم، قيدي في نفسي، في هويتي، في ضميري.
ومع ذلك اقتربنا.. فجعلتها من نفسي، وجعلتني من أفراد السرب، وهذا شيء أتعبني، وأرهقني، وقيدني.

فجربت أن أهرب من قيدها، وأقيدها بقيدي، فتنافرت وزهدت، وتشتت، واختفت، وبعد ذلك عدنا، فتقيدت بقيدي، وتقيدت بها وبسربها.
فتحمل كلًا منا ما به من قيد يثبطه، ويعطل حريته، ويتلف قوانينه، ويقلب موازينه، فظللنا نكابد السير، ونعاند الحقائق، حتى انفلقت أكبادنا،

وصرنا مملقين لبعضنا، وذلك الاملاق كان للصورة التي رسمها كلًا منا للآخر.

كنا واهمين، نريد أن نتلاحم، مع علمنا باستحالة هذا.

نعم، كمادتين متنافرتين، أصولنا ليست واحدة، ولكن تجمعنا بعض الخصال القليلة التي لا تفيد في الاتحاد والالتحام، ولكن زين الوهم لنا هذه الخصال، فصارت كالأصول التي لا يُشك في أمرها، فبنينا عليها طوابق تحمل أحلامنا، ونوافذ تحفظ سرنا، وأبواب تُغلق في وجه الحزن، حتى لا ينفذ إلينا، ولكن لم يجدي هذا نفعا، فنهار البناء، وحل البلاء، وانقطع الرجاء.

الرسالة السادسة

اعذرني فلم أكتب لك في الأيام الماضية، قد داهمتني الذكريات وأخذت مني الكثير. لم يكن في مقدوري أن أقص حكايتي مع الضوء بسهولة، فالكتابة تدفع عقلي إلى الدخول في زوايا الذكريات، والذكرى يتبعها تأمل، والتأمل مصاحب للحزن والأسى.

لو قرأ أحد غيرك هذه الرسائل سيقف عند كلامي عن الضوء، أما أنت فلم تقف حينها، ومع ذلك فقد سألتني عن مسمى الضوء.

لما الضوء، لوأقصد الضوء المحض، وليس بشيء يحمل الضوء في مادته. الأعمي الذي لم يرى النور في حياته إذا سألته عن مادة الضوء فلن يجيبك، لأنه لم يَرَهُ من قبل، وبالأحرى لن يعرف الأشياء التي تحمل مادة الضوء، أما أنا فمع كوني بصيراً، امتلك عيون ترى الماديات المحسوسة، فهذا قمر منير، وتلك شمس ساطعة، إلا أنني كنت أشبه ذلك الأعمى الذي لا يعرف ماهية الضوء.

حياتي كانت مظلمة، على الرغم من المصابيح الكهربائية التي لا تنطفأ في غرفتي - وكان هذا يزعج أمي كما تعلم- إلا أن ظلمتي كانت في نفسي، بداخل صدري، وفي أعماق روحي.

كنت أبحث عن الضوء، وأضع له صورة خيالية، حتى جاء، وأريد منك أن تتأمل معي حال صاحبنا الأعمى، ومكابدته للظلمة طيلة حياته، وتأمل معي كيف أنه كان يفتح عينيه على مصراعيها فلا يرى شيئا، وتلك كانت محاولاتي الحثيثة في البحث عن الضوء، فإذا به يغلقها ويفتحها مرات ومرات، لعله يفز بالضوء الذي لا يعرفه ولا يفقه معناه، ولكن بداخله فطرة تقوده إلى ذلك الشيء.

إنه لشعور مميت أن تفتح عينيك فلا ترى إلا الظلام، وهذا الرجل كان يشبهني، فإنني كنت أفتح عين قلبي فلا أرى إلا الظلمة، حتى أنني كنت أحدق بها في كل شيء، تحديق مملقٍ فقير، وفقر المعنى في حياة المرء يشبه

فقر المال، بل وقد يعلوه، لأن المال قد لا يكون في يديك، وقد تتعب حتى تصل له، أو إلى جزء منه، ولكن قد يكفيك القليل منه لتعيش، أما المعنى الذي يمثل هوية المرء فلا يُقدر
بثمن.

ثم رأيتها- أعني الضوء - فإذا بي أرى شيئًا لا يشبه الأشياء، فقلت في نفسي هل هذا هو الضوء؟! ولا أكذب عليك حين أقول، أن هذا الضوء فاق كل ما تخيلته. فكنت مثل هذا الأعمى الذي يجلس بين يأسه ورجاءه، فينظر إلى هذا مرة، فيرى الظلمة، وإلى هذا مرة، فيرى الظلمة، وفي خضم هذا البؤس، يجد صوتًا يقول له: أنظر إلى ناحية الرجاء فإذا به مبصرا، فيضحك في نفسه ويقول: هذا حلم، فإنني ما زلت أعمي، ويفرك عينيه ويقول: كنت أعمى، فصرت مجنون، لعلي أصبت بداء الهلوسة، ولكن عليَّ أن أثبت لنفسي هذا، سأنظر إلى جهة اليأس مرة أخرى، وأنا أعلم أنني لن أرى شيئًا. فينظر، فإذا به يرى كل معاني الحياة بألوانها التي

لا يفهمها، فاحمرار الأزهار، كزرقة البحر، واصفرار أشعة الشمس يتشابه عنده بخيوط ضوء القمر. هو لا يعرف ما الأزهار وما البحار، لا يعرف أن هذه تسمى شمسًا وهذا قمرًا، هو الآن يتحسس طريقه، وفطرته ستساعده حتى يعلم ماهية هذه الأشياء، وحينها سيعاين جمالهم.

وبعد هذه الفترة سيتغير حاله، فلو تراه وهو يقفز في مسارح الحياة بين الناس، يريد أن يخبرهم بأنه يراهم، وأنه يفهم ما يشيرون به إليه من دون وصف، فإذا سألته حينها عن الأضواء فسيجيبك عن كل معاني الضياء، وكأنه من أحفاد أشعة الشمس، أو كأنه مُصاحب للشعاع الذي يعكس ضوء القمر، أما الظلمة فهو لا يعرفها الآن، بل ويتناسى ذكراها، فإنه لا مكان لها في فؤاده بعد رؤية الضوء المحض.

فهل تجد قلمًا قادرًا على وصف شعور هذا الرجل، وهل تمتلك البشرية لسانًا يتحرك في فم أحدهم ويدور حتى يخرج لنا كلمات تعطي هذا المشهد حقه؟!

فإن حالي كان يفوق هذا الأعمى عندما رأيتها يا رفيق.

ألوانها في فمي

الأصفر يليقُ بكِ.. كذلك الأخضر، الأزرق أيضا يُحبك.. الكل يحبك ولا شك في هذا.

أعذريني.. الأمر مُربك قليلًا لي ولكافة الألوان، لأن مُخالطتك للألوان تُضفي عليهم جمالًا لا مثيل له، فهم يَرون من أنفسهم جوانب أخرى عندما يرتبطون بكِ، يرى كل لون منهم أنه أصبح كاملًا، ولا يرى مكوثهُ إلا معكِ.

بدونك الأزرق لا يجد نفسه حتى وهو بين سمائه، وإذا جاء الليل واسودت السماء يظل منتظرًا لقدومك، كذلك الأصفر يحتار بينك وبين أصل مادته، كونه شعاع من أشعة الشمس، ولكنه يجد قلبه معك، ولا يريد أن يكون مجرد شعاع، إنه يرى نفسه شمسًا معكِ.

أما الأخضر فقد كان أقصى طموحه أن تجلسي في حدائقه وتداعبي أزهاره، كان يقول لي دائمًا أنه لا يتخيلُكِ إلا زهرة، فلا تستغربي من لطفهِ

معك ومع باقي الأزهار، فإن مجالستك له جعلته ينظر إلى نفسه وكأنه حامي الأزهار الوحيد، وليس مجرد لون أخضر يكسو البساط الذي تنبت فيه الأزهار.

أما أنا فكنت وحيدًا كعادتي، أبصر الألوان وهي تُحيطكِ، وأبصر ودك وجميل لطفك معهم.

وبين البحر وسمائه، والشمس وأشعتها، أجد نفسي جالسًا على البساط الأخضر، وسط الأزهار، ألقي بنظري إلى السماء فإذا بكِ تأخذي بيد الأزرق وتختلطا معا بالسماء، فتصيرا كوحدة متماسكة، غير أنكِ كنت سماء وحدك، ونظرت إلى الأصفر فإذا بكِ تبتسمي له وتداعبيه، فلم يلبث وهو معك إلا أن يُضئ، فإذا بالضياء يشع في الكون، ولم يكن هذا إلا ضياؤك.

ولم يكن الأخضر على ما يرام، لعله غار من رفقاءه، حتى أنني رأيته يبكي في حرقة غريبة، غير أن مجيئك إليه، وحنوك الأخاذ، ووداعتك التامة، قد أخذت بتلابيب قلبي قبل قلبه، ثم مجالستك معه على البساط الذي يركن إليه، ومداعبتك لأزهاره، جعله يُزهر، ويخرج من تربته كنوز لم تخرج من باطنه من قبل، فصار وكأنه جنةً أرضية، فيها من كل جميلٍ وفاتن.

ثم نظرت إلى البحر، فرأيت أحاطتك به وبي، وكنتِ كالأم الرَؤوم[10]، فمن أمامي أراكِ تأخذين بتلابيب[11] البحر، كذلك السماء وأشعة شمسها، والبساط الأخضر، ثم أزهار البستان التي تولت أحاطتها بي، فما كنت أعلم أنكِ على صلة بهم. يبدو أن أفانين الجمال في هذا الكون على أرتباط بكِ، لذلك فإنني لا أخشى من ابتعادك، لأنني سأجدك عند كل جمال وفن.

***

[10] الرؤوم: الحنون العطوف.

[11] تلابيب: تلابيب الشيء. هي مجموع الشيء، كأنه أحاط به، واستحوذ عليه.

الرسائل التي بيننا، لن تتمكن الطيور من حملها لكلينا، كما أن شبكات التواصل العنكبوتية فشلت أيضا في هذا الأمر.

اعلمي أن رسائلنا هي نبضات قلبية، لا تُرسل إلا عند شعور القلب بالحب، والقلب إذا أحب أرسل رسالته بنفسه.

***

أطياف مُنسدلة

وجهًا لوجه
الأعين تتحدث
تم الدوران في المحاجر[12]
صدقني.. أنا لستُ بقادر

هما أثنين بوجهٍ واحد
مرآة السماء تَنسدل[13] من عليائها
تريد التماهى[14] مع أنوارها
البشر ينظرون إليهما بعيونٌ مُهترئة[15]

---

[12] المحاجر: تجويف عظمي يحتوي على مقلة العين والعضلات والأعصاب والأوعية الدموية بالإضافة إلى الأجزاء الأخرى التي تفرز الدموع.

[13] تنسدل: الشيء المنسدل هو المُرخى أو المسترسل.

[14] التماهي: المحاكاة.

[15] المهترء: الفاسد أو البالي أو المعطوب ونحوها من المعاني.

ثم بدأ اللقاء
من أنت؟! قالت
أنا الشعر، بيتُ القَصيد[16]. قلتُ
مُتصعلك[17]، وعيشي رغيد. كذبتُ

هي طيف وردي شفيف
شفاها تطبق على سِراجٍ مُنير
ترنو بعيناها الساهمة إليه
تلك النظرات تجعله أسير

وماذا بعد؟

[16] بيت القصيد: الأمر المهم، أو خلاصة الموضوع.
[17] الصعلوك: الفقير الذي لا يملك مالاً يساعده على تحمل تبعات الحياة.

تتجدد الأطياف لتتحد مع الذكرى
فإذا به يُردد تلك الكلمات
" نظرة وراء نظرة؛ لتتم الفكرة"

ثم قطعت نظراتها وقالت:
أنظر في عيني أيها الشاعر
هكذا تتولد المشاعر
تكلم بالشعر، وزدني، وزدني
ولا تقل لستُ بقادر

ثم تولت عنه وثغرها يفيض شهدًا، وهو زاهل العقل والفؤاد مسكين، كان يأمل طيلة عمره أن يرى مشهدًا ليكتب عنه أعظم قصيدة خطها بشري، فإذا به أمام بحر الشعر وسمائه، فهو بين منزلتين:
الأولى: كونه لا يَكف عن التفكير فيها.

الثانية: كانت من جراء الصدمة الفنية التي تشع من وجهها، فإذ به لا يجد كلمات مُتراصة، بينهن موسيقى ووزن ليكتب تلك القصيدة العظيمة.

ثم جاءته سحابة، فأنشد قائلًا:

كذبت، وقلتُ أنا الشعر
فجاءتني بسيف النظراتِ

ثم تولت عني وتركتني
وقلبي منها يَنزف عبراتِ

تنظر إلَّ، والود في مهدهِ
وأنا الشريد، حيٌّ كالأمواتِ

فهل يُعاد ذلك اللقاء، وهل
تبقى نظرتها فيما هو آتِ

***

أرى أن زهور نفسي تَنبتُ في يَديكِ.

***

أشرقت، ثم ذهبت، فتركت في نفسي محبة الأزهار!

***

لا يُقَيد المرءُ منَّا شيءٌ مثل أحزانهِ..

***

وإنّني سَجينٌ في مَحاجرِ عُيونُكِ

***

اليوم، ونحن على حدود اليقين، تمتلئ أفواهنا بحروف الشك ورموز القلق.
اليوم، نعم، هذا اليوم، يمكننا أن نفترق بلا سؤال.
لما علينا أن نسأل، ولما علينا أن نجاوب عن ذاك السؤال، حتى وإن كانت الإجابة تتستر بداخلنا، متقنعة بأسبال الخوف والهرب.
حتى الليلُ الذي بداخِلي يا قمر يحتاجُ إلى ذلك الضوء..

وفاتنةٌ تَحملُ الود في ضوئها..
إذا فتحت عيناها خرج السحرُ

وتَأفلُ لضوئها كل أجرام الهوى..
ولا سيما الشمسُ والبدرُ

ينسى القمر أن معناه يتضمن النور أمامك.. أخشى أنه قد أرغم على النسيان.

الأمر لا يتعلق بالإرغام أو النسيان، يكمن الأمر فيكِ أنتِ، فلعلك أخذتِ بلُبهِ[18] كما فعلتِ معي، والمسكين لم يتمالك، فوقع بين النسيان والإرغام.

أما أنا فكما أنا.. لا أنسى ولا أُرغم، بل أكتب بلسان فؤادي عنكِ، وليس هذا بفعل مؤقت، بل إنني سأظل على هذا الصدد على مدار الدهور.

[18] اللب: هو العقل.

الرسالة السابعة

كنا دائمًا متضادين، ومع ذلك فلم يُرى مثيلا لصحبتنا.

ألا تظن أنني أمتلك موهبة إرسال الرسائل بمقدمات غير تقليدية؟

لا أجد نفسي مع الأشياء الثابتة، تشعرني بالاختناق والضيق، حتى في الكتابة، أجد قلمي سيالاً، يقودني ولا أقوده إلا فيما يندر، وحينها أجد لذتي.

أما أنت يا رفيقي، فتُحكم عقلك وتتريث في خطواتك، وأنا كالشلال، مندفع وراء خيالي الجامح، أنت تتقصى الحقائق وتزن الأمور بميزان شديد الحساسية، وأنا متهور، أحب المغامرات الغير محسوبة.

حتى في الأدب، وخصوصا الشعر، فلا زلت تبارزني بشعراء الحكمة والفروسية كالنابغة الذبياني وعمرو بن كلثوم، وعلى الطرف المقابل كنت أنا نديم[19] امرؤ القيس وطرفة بن العبد وباقي الرفقة من الصعاليك.

ولكن في الجملة كان يجمعنا الأدب، خصوصا الشعر، فالليالي البدرية كانت تمر علينا في تأمل لقصيدة أو قصيدتين، نلوكها في أفواهنا، ونتأمل معانيها.

قمت اليوم من نومي وذهبت إلى مكتبتي، كنت قد انتهيت من القراءة الخامسة أو يزيد لثلاثية صامويل بيكيت (مولوي- مالون يموت- واللا مسمى) أشعر أن كبريائي وعنادي يدفعني لقراءة الروايات المستحيلة، كذلك في الحياة، أحب أن أجاري النسق الصعب، على كلٍ، وضعت الثلاثية في مكانها بالمكتبة، ثم أخذت كتاب شرح المعلقات السبع وتصفحته، قربت أنفي منه، وصدقني، لا زال عبير لياليا ملتصقٌ به، ولكن مع هذا العبير الفوَّاح، كانت رائحة أخرى تحز أنفي بسكين الجحيم.

[19] النديم: هو المُصاحب والمرافق.

الرائحة قادمة من الرف الأعلى للمكتبة، أحضرت كرسيا، ونظرت في كومة الكتب التي اتخذها العنكبوت بيتا، فظهر الكتاب الملعون الذي لم يمت في نفسي، ولم تقتله العناكب.

أخذته من مقبرته، وقذفته على الأرض، نزلت من على الكرسي، وجلست بعيدا عنه، وعدت برأسي للوراء، حيث الظلمة.

هل تذكر حديثنا عن الانحياز، وأعني انحياز المرء لقلبه، وشدة سطوته على النفس والجسد؟

كنا مختلفين، أنت ترى أن المرء منا عليه أن يجد تماسا بين الانحياز ومخالفة قوانين القلب، وأنا كعادتي، راكبا جواد قلبي بلا وقوف.

الكتاب الملعون يبرق بعيونه الزرقاء، أشعر أن صفحاته تمتد إلى عنقي، وضربات قلبي أخذت في الازدياد.

هل تذكر ما حدث يا رفيقي؟

ففي أثناء تمسكي بقناعتي عن الانحياز القلبي، وأنه السبيل الوحيد لسعادة المرء منا، تركني الضوء، فخزم قلبي أمتعته مع الضوء، وغادر جسدي العليل.

تركني الضوء بعد أن أخذ حشاشة قلبي، ولم يترك في نفسي إلا الأسى.

تركني بخفة، كأنه سراب ووهم.

ما كنت أظن أنه سيفعل بي هذا، ولكنه فعل، فياليتني لم اقترب منه.

أنا هنا لا أنقل لك عويلاً أو صراخًا، أنا شخص يفسح لتلك اللحظات شيء من الغوص فيها بعمق، وهو ليس بتأمل، الأمر أشبه بتذكر كل ما مضى، وتقصيه ومراجعته، والغوص في تفاصيله التي تقتل كل ذرات الحياة.

ذاك الكتاب ذو العيون الزرقاء الملعونة، كنت قد خططه بيدي، والقيت بداخله شهود وجدي وشوقي للضوء، وحبرته تحبيرًا، بلغة كتبت بماء الدموع

المبتهجة، لا الحزينة الملتهبة، وقد كانت نصوصه بين الشعر والنثر والرسائل، ولكن الضوء رفضهُ، بل ومقتهُ بسخرية، وتركني مغادرا بلا سلام.

فأكملت الكتاب بحنق وحسرة، كأنني ألاحق فيه فريسة، لا أجد بقائي إلا في التهامها، فقد كان قلمي حادا، كالسيف البتار، أنحر فيه كل شيء، حتى نفسي.

يبدو أنني لا أريد الخروج من تلك الحقبة، قد أكون متلذذًا بها، وهذا شقاء لا يعادله شقاء، أن يجد المرء سلوته ومهجته فيما يعذبه، ولكنها النفوس والأرواح، لا يفهم كنهها إلا خالقها ومبدعها.

أذكر أنني لم أخرج من تلك الحالة إلا بنصيحتك، فقد أهديتني كتابًا[20]، كنت أتوسده بالليل، وأرافقه بالنهار، مع كونه كتاب قد كتبه صاحبه

[20] هو كتاب (رسائل الأحزان) لإمام العربية مصطفى صادق الرافعي-رحمه الله.

بمداد الحزن، ولكنني وجد سلوتي فيه، أما عن كتابي الملعون، فلم أعمل بنصيحتك، ولم أنشره، فكفى ما فعله بي.
لعلي أُراسلُك غدا أو بعد غد، ولعلي أراك في يوما ما.

نهاية مؤقتة

لعلي أثقلت عليك عزيزي القارئ..
سامحني، فهذا العالم الرقمي الافتراضي الذي نعيش فيه، قد سلب منا أرواحنا، وصرنا نشبه الآلات، بلا معنى أو شعور.
كان هدفي أن أخرج ما في صدري، أن أتكلم عن فترة عشتها، وعاشها معي بعض رفاقي، أخذت منهم وأخذوا مني، فكانت هذه المسارب بمثابة الجسر الوحيد بيني وبين التعايش في هذا العالم الغريب الموحش.
تلك كانت مساربي، كلماتي، هواجسي وأحلامي، فلعلها لامست شيئًا من مساربك عزيزي بل رفيقي القارئ، فقد صارت بيننا رفقة، وأرجو أن تدوم.

أراك قريبًا..

المؤلف في سطور..

الكاتب/ أحمد النوبي، شاعر وقاص مصري.

ليسانس أداب قسم اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية.

صدر له كتاب (صغيرتي) خواطر نثرية عن دار لوتس للنشر 2020.

شارك في بعض الكتب المجمعة الصادرة عن دار لوتس للنشر.

شارك في كتاب للقصص القصيرة جدًا الصادر عن مسابقة دار كتوبيا للنشر.

نشرت له بعض القصص القصيرة في مجلة الثقافة الجديدة.

له قصائد وقصص قصيرة منشورة على المواقع الأدبية الألكترونية.

للتواصل مع الكاتب:

face book

instagram